تفنيد المزاعم

صورتان متضادتان لعقيدة الإسلام ورسالته

(ردا على ما كتبه كريغ وين بعنوان: محمد رسول الهلاك)

(٤-٤) الدكتور / صلاح الدين الندوي، الأزهري

ز. حقيقة الوحي عند المستشرقين

ومعلوم أن علماء الدين والفلاسفة في العصر القديم والحديث قد تناولوا هذه القضية وأثبتوها، وجاء وا بالبراهين القاطعة للدلالة على إمكان الوحي بمفهومه الشرعي، ودحضوا كل ما أثير حوله من شبهات وادعات باطلة.

فوصف ظاهرة الوحي الإلهي، وما كان يعتري النبي ﷺ عند تلقيه من حالة خاصة ناشئة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية، واتصاله بالملكية الروحانية بالهرس أو الصرع أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية في ضوء التحليل النفسي جهل خطير بحقيقة النبوة. والعلم الديني لا يقبل مثل هذا القول من المفكر الفرنسي (جوستاف لوبون): (قيل إن محمدا كان مصابا بالصرع، ولم أجد في تاريخ العرب ما يجيز القطع بذلك، وكل ما في الأمر ما رواه معاصروه وعائشة منهم: أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان فغطيط فغثيان. وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون، وجدته حصيفا سليم الفكر).

ثم يقول: (ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسي الديانات .....) أليس ما سمعنا منه من مجازفة القول أن يعد (لوبون) محمدا ﷺ من المتهوسين، ولم يثبت تاريخيا قط (قبل البعثة ولا بعدها) أنه كان من ذوي الوساوس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب، أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية التي لابد لها من انعكاسات وردود فعل.

ألم تشهد خديجة (رضي الله عنها) وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو في غار حراء

لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع؟ وهي تقول:

(كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق) (رواه البخاري).

فما علاقة هذا الكمال الخلقي بالهوس، فقول (جوستاف لوبون) مبني على الجهل بحقيقة الدين، وعلى الانصراف عن استخدام منهج النقد العلمي في موضعه.

ثم نحن نسأل المستشرقين ونقول: الذين آمنوا بصدق نبوته ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، واتبعوا الدين الذي جاء به – من أولي العلم وقادة أهل الرأي والفكر على مر العصور – هل كلهم كانوا أغبياء مغرورين، لم يعرفوا التمييز بين الحق والباطل؟ ونسأل أيضا ما هو الفرق إذن بين أقوال المشركين في الجاهلية وتفسيرهم لظاهرة الوحي حين نزوله على الرسول ﷺ بالجنون أو بالسحر تارة أو بالشعر والكهانة تارة أخرى، وبين تفسير المستشرقين الأكاديميين للوحي من الزاوية النفسية أو العقل الباطن أو القوة المخيلة ونحو ذلك مما اخترعوه وانتحلوه كالهوس الذي زعمه (لوبون). فهو في كتابه (حضارة العرب) لم يفهم شخصية الرسول الكريم في حياته الزوجية التي ذكرها بالشهوانية، واستنتج مجموعة من الأحكام الفاسدة، التي كررها هذا المؤلف الأمريكي (وين).

ومن أغرب الخيال أن المستشرق كليمان هوار (Hawar) كتب فصلا: زعم فيه أنه اكتشف مصدرا جديدا للقرآن، هوشعر أمية بن أبي الصلت.

فزعمه قائم على الشك في أن النبي ﷺ هو الذي أخذ عن أمية. فما دام الشك هو مذهبه، فلماذا لا يشك في أن يكون أمية هو الذي أخذ عن النبي ﷺ، لأنه كان معاصرا لعصر النبوة. ثم إنه يشك فيما جاء به النبي ﷺ رغم وجود انتحال في الشعر المنسوب إلى أمية.

ثم أليس من الغريب أن الذي يخل الشعر ليحاكي القرآن يلزم أن يلائم بين شعره وبين نصوص القرآن؟ ثم أليس من المعقول أن يخالف بينهما بقدر الإمكان ليخفى النحل، ويوهم أن شعره صحيح لا تكلف فيه ولا تصنع. (٢٥)

(٢٥) صفحات من تاريخ الاستشراق: محمد كامل عياد: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وبما رد به طه حسين على هذا الافتراء الجديد قوله: (والغريب في أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون في صحة (السيرة) نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، ..، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة. فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون الآخر؟ أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟ (٢٦)

فإذا وجدنا بعض التعبيرات العربية التي استخدمها العرب في الشعر والنثر وردت في كلام الله، والقرآن جاء بلسان عربي مبين، وكان أحيانا ينزل بنص كلمات تحدث بها الصحابة من أمثال عمر رضي الله عنه وعنهم، فهذا ليس فيه شيء من الغرابة.

وما جاء به المستشرقون في دعاويهم من إفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته، هو قائم على مجرد افتراض، وقد عارض المستشرق السويدي (تور اندريه: Andrea Tore) صاحب كتاب (محمد: حياته وعقيدته) هذه الطريقة العقيمة التي سلكها بعض المستشرقين في البحث، وبين أن جوهر النبوة، لا يمكن تحليله إلى مجموعة آلاف العناصر الجزئية، ومهمة الباحث في رأيه أن يدرك في نظرة موضوعية: كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة، فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية وعقيدة الحنيفية، تقاليد العرب، ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر. (٢٧)

وأما القرآن، فيعتبر الوحي من شواهد عبقريته المثالية، ولكن الوحي عند (لوبون) من إنشاء محمد، وليس من عند الله، ثم أنكر (لوبون) شمولية القرآن، وقال: إنه كان موقتا بعصره، فلا يحقق حاجات الفرد في عصور لاحقة، بل اعتبره سبب تخلف المسلمين. كما نرى في هذا الكتاب الجديد. فالجديد الذي يظن هذا المؤلف الأمريكي المتهوس (وين) أنه

(٢٦) في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين، ص: ١٤٢–١٤٥، طبع في القاهرة عام ١٩٥٨م.

(٢٧) محمد كامل عياذ: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٤م: ٤٤ ص: ٧٩٧ عام ١٩٦٩م.

جديد، ليس سوى القديم البالي من آراء المستشرقين التي دحضها علماء المسلمين فور ظهورها على امتداد العصور، منها أن محمدا كان رجلا دفعته طموحاته ووساوسه في سن الكهولة إلى تأسيس دين، ليعد في زمرة القديسين، فألف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية، وقام بنشرها في قومه، فاتبعها رجال منهم كما تخيل (ويلز): G.Wells (٢٨)

ورأى (جولد تزيهر) أن المعرفة الدينية التي تلقاها محمد ﷺ إلى عنصرين خارجي وداخلي، فقال: (فتبشير النبي العربي ليس سوى مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثرا عميقا وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهيا). (٢٩)

ومما لفت انتباه المستشرقين هو التشابه الحاصل بين هذا القصص، وبين القصص اليهودي المسيحي، ذكر هذا الرأي (بلاشير) بالخصوص في كتابه (معضلة محمد) عن مصدر القصص القرآني، وعرض في هذا الصدد آراء بعض الباحثين، وبين رأيه فيما استنتج من العلاقات المستمرة التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمكة. (٣٠)

وبعد هذه الآراء نرى ما ورد عن القرآن الكريم في كتاب (تاريخ الأديان):

"كان أسلوب النبي في القرآن أول عهده بالدعوة مفعما بالعواطف، قصير العبارات، فخم الصورة، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة .. وفي آخر عهد النبي ﷺ فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن، وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى". (٣١)

فيتضح من هذه الآراء أن أكثر المستشرقين لم يتوصلوا في دراساتهم إلى فكرة صحيحة عن مصدر القرآن، ولا عن الوحي الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ، ولذلك نرى

---

(٢٨) الإسلام والثقافة العربية في مواجهة الاستعمار ص: ٢٣٩ الصادر من مطبعة الرسالة بمصر.

(٢٩) العقيدة والشريعة في الاسلام لجولد تزهير ترجمه يوسف موسى وزميله: ١٢، ط: مصر ١٩٤٨م.

(٣٠) R. Blachere: Le Prableme du Mohamet: 60 (P.U.F. Paris 1952

(٣١) عن القرآن، محمد صبيح، ص: ١٤٤–١٤٧، طبع في مصر عام١٩٣٩ م.

الكتاب الغربيين اللاحقين يرددون آراء السابقين، بل إن المتعصبين منهم حين يتحدثون عن الرسول والقرآن والإسلام، تنقلب ألسنتهم وأقلامهم إلى معاول هدم، مثلا نرى في مقال (فيلب ايرلنجي) في مجلة صدرت بباريس، نسب فيه إلى الرسول ما لا يصدر مثله إلا عمن غلب على فكره التعصب والحقد، وذلك للنيل من شخصية النبي (ﷺ) الشريفة، وكان مما ادعاه في مقاله: كثرة اتصال محمد باليهود في مكة – والمعروف أن جل اليهود آنذاك كانوا بالمدينة لا بمكة، وهذا ما يجب أن يتبرأ منه كل باحث نزيه –.

وما يوجد في القرآن من الإعجاز الوجداني والعلمي ينفي أن يكون مصدره بشريا، كما شهد بذلك كل من درس تلك الحقائق العلمية والكونية دراسة علمية موضوعية من المؤمنين به وغيرهم.

فمثلا نرى الطبيب الفرنسي الدكتور (موريس بوكاي) يقول فيما كتبه بعنوان: (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم):

(لقد أثارت دهشتي هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن، والتي كانت مطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة، وكان هدفي الأول هو قراء ة القرآن، ودراسة نصه آية وآية، وانتبهت بشكل خاص إلى دقة بعض الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية، ومطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن هذه الظواهر نفسها، والتي لم يكن لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكوّن عنها أدنى فكرة .. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية فادحة، فإنا لا نجد في القرآن أي خطأ، وقد دفعني ذلك إلى أن أتسأ ل: لو كان مؤلف القرآن إنسانا، فكيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع العلوم الحديثة ؟ ومن ذا الذي كان في عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية ؟ حقا إن في إشارات القرآن قضايا ذات صبغة علمية تثير الدهشة).

إن هذه الشهادة من عالم محقق وباحث مدقق مثل الدكتور (بوكاي) لها وزنها واعتبارها، الذي درس القرآن آية وآية، ونظر إليه من زاوية تخصصه، فتميز بحثه بطابع

علمي أكاديمي، فخرج بنتيجة تشرف أهل العلم. (٣٢)

ح. تصور ذات الله وصفاته في القرآن

إن المؤلف (وين) قال في كتابه هذا إن الصفات الإلهية التي ذكرت في القرآن هي تنطبق على الشيطان في الإنجيل، فيجب أن نذكر هنا تصور الدين الإسلامي لذات الله وصفاته، لنرى أهذه الصفات الإلهية: (رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) لله الرحمن الرحيم أو للشيطان الرجيم، ثم نسأله أين الأمانة العلمية ؟ هل ذات الله وصفاته تتغير بتغير الأزمان أو بالتفاسير المختلفة للصفات في الأذهان؟ رغم أن الإله الواحد الأحد لا شريك له، هو المعبود في جميع الأديان ؟

إن كثيرا من الباحثين قد تناولوا تصور الدين الإسلامي وما ورد في القرآن الكريم عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته، وأكدوا أن ما كان عليه تصور عبادة الله في القرن السادس الميلادي في العالم هو كان في حاجة إلى أن ينزل القرآن لتصحيح العوج والفساد في مسار الفكر الديني للإنسان. فنحن نوجه الدعوة ليفكر الدارسون في إلقاء النظر في التصور القرآني للإله المعبود، لأننا حين ننظر إلى التصور القرآني بعد دراسة تصورات لديانات مختلفة ومذاهب شتى لإله، يتجلى شأن تصور القرآن من بين تلك التصورات كلها، حيث نجد أن التصوير القرآني البليغ هو أشمل وأفضل وأسمى من جميع الصور التي نراها في جميع الكتب السماوية وغيرها.

ط. تصور التنزيه الكامل للإله في القرآن

فالتصور القرآني تكميل لتصور التنزيه لله سبحانه وتعالى، وهذا التنزيه الكامل من جميع شوائب التجسيم لم يكن له وجود في الدنيا وقت نزول القرآن، فكان أسمى مرتبة من مراتب التنزيه الذي استطاع أن يصل إليها الفكر البشري هو أن يعبد إله غير مرئي، بدلا من عبادة الأصنام. وأما من ناحية الصفات الإلهية، فلم يخل تصور من بين تلك الاعتقادات من شوائب التشبيه والتجسيم والتمثيل بالصفات والمشاعر البشرية مثل الجسم والشكل

(٣٢) القرآن والتوراة والعلم/ موريس بوكاي ص: ١٤٤–١٤٨، دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧ م.

والانفعالات والعواطف كما نرى في الاعتقادات الهندية واليونانية، والاعتقاد اليهودي الذي لم يجوز أي شكل من أشكال لعبادة الأصنام هوأيضا لم يكن خاليا من شوائب التشبيه والتمثيل بالكامل، لأن قوة الإدراك للإنسان لم تكن ناضجة لفهم الصفات الإلهية من غير مثال أو تشبيه قبل نزول القرآن، ليرى الإنسان التجليات الإلهية مكشوفة من غير ستار للتشبيه والتمثيل. ولذلك نرى أساس كل مذهب على التمثيل والتشبيه، فنرى في الديانة اليهودية أن تصور الصفات الإلهية هو الآخر لا يخلو من تشبيهات بصفات المشاعر الإنسانية، رغم أن مزامير (زبور) لم تكن خالية من تخيل الصفات الفاضلة الجديرة بألوهية إله، وكذلك أرادت الديانة المسيحية أن تقدم تصورا جامعا وشاملا للرحمة، ولكنها هي الأخرى اضطرت لاستخدام تشبيه الإله بأب، فانحرفت الإنسانية من هذا التشبيه، وظهرت عقيدة ضالة، وهي عقيدة بنوة المسيح عليه السلام. (٣٣)

ولكن حين ننظر إلى القرآن الكريم ترتفع جميع ستائر التشبيه والتمثيل فجأة، ولا نجد فيه أي أثر للتشبيه بالصفات والمشاعر البشرية، ولا شائبة من شوائب التجسيم، وهكذا يصل التنزيه إلى درجة الكمال في القرآن كما نرى في قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) و(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (الأنعام) و (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد) (الإخلاص) و (فلا تضربوا الله الأمثال) (النحل) .

ي. صفات الرحمة والجمال والقهر والجلال

وبعد دراسة التنزيه الكامل حين ننظر إلى صفات الرحمة والجلال في القرآن نرى فيها شأن التكميل والشمولية بالوضوح. لأن عنصر القهر والغضب كان غالبا على تصور الصفات الألوهية عند اليهود. وحين نزول القرآن كانت قوتان متساويتان مستقلتان لتصور إله، وكانتا متمثلتين في (الخير والشر) أو قوة (النور) و (الظلام) والمسيحية ركزت على صفة الرحمة والرأفة والحب في تصور الألوهية بدون التفات إلى حقيقة الجزاء، كما كان الأمر عند أتباع البوذية، فكانت قوة القهر والغضب غالبة على الرأفة والرحمة أو كانتا

(٣٣) ترجمان القرآن لأبي الكلام آزاد (بالأردية) ج:١ ص: ١٠٩.

متساويتين عند اليهود والنصارى والبوذيين، حيث لم يبق مكان للعدالة الإلهية. ولكن القرآن قدم صورة كاملة لصفات العطف والشفقة، وهي خالية من عنصر القهر والغضب من ناحية، ولم يتجاهل عنصر الجزاء من ناحية أخرى، ولكن الجزاء لن يكون على أساس القهر والغضب، وإنما كان جزاء الأعمال قائما على العدل، كما يقول القرآن معلنا الصفات الإلهية:(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى). (٣٤)

ونستدل من هذه الآيات الكريمة على أن الصفات الإلهية كلها من الأسماء الحسنى يعني أنها من صفات الخير والجمال، وهي واردة بالسعة والشمول في كثير من الأماكن في القرآن. ومن بينها صفات يبدو أنها صفات القهر والجلال مثل: الجبار والقهار، ولكن القرآن يقول: إنها أيضا من الصفات الحسنى، لأنها مظاهر القدرة والعدالة الإلهية، وصفة القدرة والعدالة من الصفات الحسنى، لأنها لا تقدم صورة مخيفة للتخويف والترهيب، كما ذكرت صفات الرحمة والجمال والقهر والجلال جنبا إلى جنب في سورة الحشر، ثم سميت بالأسماء الحسنى مباشرة. ولذلك ذكرت منها ثلاث صفات بشكل واضح في سورة الفاتحة وهي: الربوبية والرحمة والعدل ولم تذكر صفة من صفات القهر والجلال.

ويتضح أن إلهنا هو رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وهذه الصفات الإلهية الحسنة التي أراد المؤلف (وين) أن تطبق على الشيطان في الإنجيل، فنحن نسأله أين ذلك الإنجيل، الذي يقول إن هذه الصفات التي ذكرت في سورة الفاتحة في القرآن الكريم هي صفات شيطانية وليست صفات رحمانية ؟ ثم أين ذلك الإنجيل الذي يسميه إنجيلا؟ هو ليس إنجيلا واحدا، ولكنها أناجيل متعددة ومتناقضة، والإنجيل الأصل لاأثر له الآن البتة، ولن يكون له وجود حقا إلا بعد الاعتراف بأن القرآن تنزيل سماوي يصدق أن هناك كان كتاب من الكتب السماوية المنزلة اسمه (إنجيل) أنزله الله على عيسى بن مريم عليهما السلام.

☆☆☆

(٣٤) أم الكتاب لأبي الكلام آزاد(بالأردية) ص: ٢٢٤–٢٢٥.